الحروب الهجينة والصراع على الشرق الأوسط

د. سارة أمين يونس(*)

مقدمة:

يتّسم المناخ العام السائد في مختلف بقاع الأرض بمناخ الحرب دون إعلانها صراحةً، متجلّياً بالتّجاذب بين القوى الكبرى، حيث تريد الولايات المتحدة الأميركية وحلفاؤها من جهة، الحفاظ على الهيمنة الأميركية والإبقاء على النظام الدّولي الحالي. بينما تحاول الصين وروسيا وإيران والدّول المؤيدة لها من جهة أخرى، تغيير النظام القائم ودفعه باتجاه التعددية القطبية. يتّخذ هذا الصّراع أرضاً في العديد من المناطق حول العالم، مثل أوكرانيا، دول البلطيق، اليمن كما العديد من دول الشرق الأوسط. وتتخّذ الدّول الكبرى من "الحرب الهجينة" وسيلةً للمنافسة لأسبابٍ عديدة. أبرز هذه الأسباب انخفاض كلفتها وارتفاع تأثيرها، وتحقيقها النتائج المرجوّة دون الحاجة إلى استخدام الجيوش بشكلٍ علنيّ وواضح.

لذلك، تتغيّر طبيعة النّزاع بشكلٍ مستمرّ متأثّرة بالتّطوّر الثّقافيّ والعسكريّ والتّكنولوجيّ. وقد تسارعت وتيرة التّغيير في خلال العقدين الأخيرين بشكلٍ حادّ. يعود ذلك بجزءٍ كبيرٍ إلى ظهور تكنولوجيات جديدة غيّرت مفهوم الأمن، وتغيّرت معه الاستراتيجيات المواكبة له. إذ يُعتبر الأمن من المسائل القديمة الحديثة على الساحة الدّولية. ولطالما اختلفت الطروحات حوله بين الواقعية التي تربط أمن الدّولة بمدى قوّتها، إلى المثالية التي ترى الأمن تنسيقاً بين الفاعلين على الساحة الدّولية والقوة كخيارٍ أخير، وغيرها من النظريات الداعمة أو النّاقدة. وبما أنَّ الحرب الهجينة هي استهداف مباشر للأمن بهدف إخلال توازن الطرف المستَهدف بطُرقٍ ووسائل مختلفة، لا بدّ لنا من التطرّق إلى المعضلة الأمنية مع تطوّر التكنولوجيا وتغيّر مفهوم الأمن.

لم يعُد مصطلح الحرب اللّامتماثلة قادرًا

(*) دكتورة في العلوم السياسية والإدارية والعلاقات الدولية.

على تفسير وشرح حروبٍ جديدةٍ اندلعت في أكثر من بقعة في العالم. وهي حروبٌ انخرطت فيها قوّات نظاميّة وغير نظاميّة، وتمّ توظيف أدوات جديدة لم يكن بالإمكان توظيفها في أنماط الحروب السّابقة. والأهمّ من ذلك أنَّ جبهة تلك الحروب اتّسعت لتشمل الفضاء الإلكترونيّ. وفي العقود الثّلاثة الأخيرة التي أعقبت انهيار الاتّحاد السّوفياتيّ، تبدَّلتِ الحربُ كلّيًّا. ودخلت عوامِلُ اقتصادية وإعلاميّةٌ ونفسيّةٌ إلى ساحات الحروب الّتي تشنّها الدّول ضدّ أعدائها لهزيمتهم وإخضاعهم. وإذا كانت الحروب قد أخذت شكل "الحروب بالوكالة أو بالإنابة" (Proxy Wars) خلال الحرب الباردة، فإنّ التّطوّر الكبير في مفاهيم الحرب قد حصل خلال العقود الثلاثة المُنصرِمة، وأهمّها التطوّر الذي حصل خلال الثورات المعروفة بـ "الربيع العربيّ"، حيث دخلت العلاقات الدّوليّة في ما يُسمَّى بـ "الجيل الخامس للحروب".

أمّا على صعيد الشرق الأوسط، فمن المُلاحظ أنَّ سوريا والعراق هي من بين أكثر الدّول التي يتجلّى فيه هذا النّمط من الحروب في الشرق الأوسط. إذ يُشكّل هذان البلدان أرضية خصبة ومتنوّعة للصّراع. أمَا لبنان، ومع العلم أنّه ليس في خضمّ الحرب الهجينة كسوريا والعراق، فتتجلّى مفاعيل هذه الحرب على أرضه بنزوح أعداد كبيرة من اللاجئين، والهجرة غير الشرعية، كما الخلايا الارهابية النائمة في العديد من المناطق.

لذلك، ومن خلال ما ورد أعلاه، يعتقد البعض أنَّ صراع الإرادات في المثلّث الاستراتيجيّ الشّرق أوسطيّ (لبنان وسوريا والعراق)، يعكس بشكلٍ أساسيٍّ قدرة روسيا على استعمال الحروب الهجينة للوصول إلى القمّة العالميّة من جديد. بينما يشير آخرون، إلى أنَّ الولايات المتحدة غير قاصرة عن استخدام وسائلَ أذْكى وأفعَل لاحتِواء النّفوذ الرّوسيّ وتحجيمه، وبالتّالي منع روسيا من استثمار القتال في سوريا لتحقيق أهداف عالميّة.

مع الأخذ بالاعتبار وجهتي النّظر المذكورتين آنفاً، تطرح الأسئلة الآتية: ما هي الحرب الهجينة؟ وما هي أدواتها؟ وإلى أيّ مدى تخفي الاستراتيجيّات المتقابلة الرّوسيّة والأميركيّة في المثلّث الشّرق أوسطيّ سوريا، العراق ولبنان بوسائلها الهجينة صراعًا دوليًّا على تشكيل النّظام الدّوليّ الجديد؟

القسم الأول
الحرب الهجينة في الإطار النظري

شهِد مفهوم الحرب تطوراً مستمرّاً على مرّ العصور بالتوازي مع تطوّر الإنسان. واكتسب زخماً هائلاً مع الثورة الصناعية، ولاحقاً مع التطور التكنولوجي والرقمي. ومع ارتباط مفهوم القوّة تاريخيًّا بالمجال العسكريّ، توسّع هذا المضمون ليشمل مجالات أخرى كالاقتصاد والثّقافة والمجال التّقنيّ والإعلاميّ. فتبلورت أنواع جديدة من القوّة منها القوّة النّاعمة[1] والقوة الذّكية. فالقوة الناعمة هي القوة التي تعتَمد على الأدوات غير العسكريّة كعناصر للجذب مثل القيم الثّقافيّة، والقدرة على الإقناع أي جذب العقول والقلوب معًا وكسبها في تنفيذ السّياسة الخارجيّة. أمّا القوّة الذّكيّة فهي تُعتبَر "المنهج الذي يؤكّد على ضرورة وجود جيش قويّ، لكنّه يستثمر أيضًا بكثافة في التّحالفات والشّراكات والمؤسّسات من المستويات جميعها،

(١) أنظر جوزف ناي، "**القوة الناعمة وسيلة النجاح في السياسة الدّولية**"، ترجمة محمد توفيق البجيرمي، العبيكان بالتعاقد مع بيليك أفيرس نيويورك، المملكة العربية السعودية، ٢٠٠٧، ص ٢٤-٢٥.

لتوسيع نفوذ الأطراف وإثبات شرعيّة أفعالها"[٢]. وهي أنواعٌ لا تحتاج إلى حشد القوّة العسكريّة التّقليديّة على غرار الحروب التّقليديّة، وهي ما أصبحت تُعرف في عصرنا الراهن بالحروب الهجينة.

وبناءً على التطوّرات التي طرأت على مفهوم وأنماط الحروب، ظهَرت نماذجُ جديدة من القتال كحرب العصابات والعمليّات العسكريّة المحدودة التي تقوم بها الجماعات المسلّحة. ومع إخفاق القوّة العسكريّة التّقليديّة في حسم الصّراع في مواقعَ مختلفةٍ وتحقيق الأهداف، كان لا بدّ من إعادة النّظر في جدوى الحرب التقليدية التي كانت تقاس عناصر الفوز فيها سابقًا بعدد الجيوش والأعتدة والآليّات العسكريّة. وأصبح بالتّالي هذا الفائض عجزًا لصالح "كسب القلوب والعقول" عن طريق جذبها بشتّى الوسائل[٣].

ولا شكَّ أنّ القوّة العسكريّة تحتلّ المكانة المركزيّة في مركّب قوّة الدّولة. و نشهد مؤخّراً ميلاً إلى التّخفيف من هذه المركزيّة لصالح الأنواع الأخرى ذات الكلفة المنخفضة ماديًّا وسياسيًّا. ونستدلّ على ما سبق من خلال عجز القوّة العسكريّة المنظّمة عن حسم الصّراعات وظهور فواعل مسلّحة منظّمة من غير الدّول على السّاحة الدّوليّة. يتّبعون أسلوب حرب العصابات، ولهم حاضنة اجتماعية تؤمن بعدالة ما يقاتلون لأجله. وهذا مثلاً ما واجهه الأميركيّون في العراق وأفغانستان وفيتنام سابقاً، وأيضًا ما واجهه السّوفيات في أفغانستان والإسرائيليّون في لبنان[٤]. وحالياً، يواجهه الإسرائيليون في غزة منذ ٧ أكتوبر/ تشرين الأول من العام ٢٠٢٣.

- تعريف الحرب الهجينة

يُعتبر فرانك هوفمان (Frank Hoffman) مؤسّس مصطلحي "الحرب الهجينة" و "التّهديدات الهجينة". ففي محاولةٍ لفصل الحرب الهجينة عن الحرب التقليدية، يُلاحظ أنّ التعريف الأمثل هو الذي عرّفه هوفمان قائلًا: إنها "مزيج مصمّم خصّيصًا من الأسلحة التقليدية والتكتيكات غير النظامية والإرهاب والسلوك الإجرامي في الوقت نفسه، وفضاء المعركة ذاته، لتحقيق أهدافه السياسية [٥]". وفي تعريف آخر له يعتبر أن "الحرب الهجينة مصطلح يدلّ على المزج بين الوسائل العسكرية والاقتصادية والدبلوماسية والإجرامية والمعلوماتية، لتحقيق الأهداف السياسية المرغوبة"[٦]وبالتالي، فإنّ عبارة الحرب الهجينة، يُقصد بها النشاطاتُ الخفية، أو القابلة للإنكار، تدعمها قوات تقليديةٌ أو نووية ترمي إلى التأثير على السياسة الداخلية للبلدان المستهدَفة[٧].

---

(٢) Richard L. Armitage Joseph S. Nye JR, "CSIS COMMISSION ON SMART POWER A smarter, more secure America", Washington D.C., 2007, p.15

(٣) جوزف ناي، "القوة الناعمة وسيلة النجاح في السياسة الدّولية"،**المرجع السابق**، ص. ٢٤-٢٦.

(٤) أنظر بوبكر الجوهري، "**تحولات القوة وحسم الصراعات** "**في جدوى القوة العسكرية**"، منشورات مؤسسة خالد الحسن مركز الدراسات والأبحاث، عدد ١٢، خريف ٢٠١٨، ص ١٥.

(٥) See Michael Kofman, "RUSSIAN HYBRID WARFARE AND OTHER DARK ARTS", in war on the rocks, March 11, 2016, p5.

(٦) Frank G. Hoffman, "Complex Irregular Warfare: The Next Revolution in Military Affairs", Orbis 50, no 3, 2006, p.1.
& Frank G. Hoffman, "Hybrid Warfare and Challenges", Join Forces Quarterly 52, 2009, pp1-2.

(٧) فرانك هوفمان، "الحرب الهجينة والتحديات"، **في جوينت فورسز كوارترلي**، مجلّد ٥٢، العدد رقم ١، حزيران/كانون الثاني ٢٠٠٩، ص٣٤.

- مميزات الحرب الهجينة

تتصف الحرب الهجينة بتماهي الخطّ الفاصل بين الحرب والسّلم، ما يؤدّي إلى صعوبة تحديد أو تمييز عتبة الحرب. وبالتّالي يصعب تفعيل الحرب التّقليديّة تجاه طرف فاعلٍ واضحٍ ومُعلن. وتؤتي الحرب الهجينة نتائجها على الرّغم من كونها أسهل، وأقلّ كلفة من الحرب التّقليديّة. فعلى سبيل المثال، إنّ الترويج للمعلومات المضلّلة والتّشجيع عليها بالتّعاون مع جهات فاعلة غير حكوميّة، أقلّ كلفة ومخاطرة بشكل ملحوظ من توغل الدّبابات إلى أراضي دولة أخرى أو إرسال طائرات مقاتلة إلى مجالها الجوّيّ، لكنّ الضّرر حقيقيٌ ومضاعف. ومن سمات الحرب الهجينة أيضاً أنّها تتّسم بالغموض وضعف الإسناد. إذ تتّصف الهجمات الهجينة عمومًا بكثير من الغموض الذي يتمّ توسيعه وتوظيفه عن قصد من قبل الجهات الفاعلة المُستخدِمة له، من أجل تعقيد مسألة الإسناد وتشتيت الخصم وكذلك إضعاف استجابته. بعبارة أخرى، إنّ الدّولة المستهدَفة إمّا غير قادرة على اكتشاف الهجوم، أو غير قادرة على إثباته إلى دولة في حال اكتشفته. وقد تكون في حالاتٍ أخرى هي من تقوم بالهجوم أو ترعاه، بهدف الاستفادة واستغلال صعوبة الاكتشاف والإسناد، ممّا يؤدّي إلى صعوبة تطوير استجابات سياسيّة واستراتيجيّة من قبل الدّولة المستهدَفة.

لذا يمكن القول إن الجنرال الصيني صن تزو (Sun Tzu) أصاب عندما طرحَ في مقولة له في كتابه "فنّ الحرب"، إنَّ "فنّ الحرب الأسمى هو إخضاع العدو من دون قتال[٨]". وهو ما ينطبق على الحرب الهجينة. أمّا حديثاً، فنلاحظ أنَّ أصول الحرب الهجينة كمفهوم جديد للحرب تعود إلى الجيش الأميركي لجهة طرح المفهوم وإعادة التفكير فيه وتطويره على مدار الخمسة عشر عامًا الماضية.

- ميدان الحرب الهجينة

على الرغم من انخفاض كلفة الحرب الهجينة وتحقيقها للنتائج بشكل فعّال في ميادين مختلفة، إلا أنها تتطلّب تفاعلًا واندماجًا بين أدوات القوة التقليدية وغير التقليدية التي عادةً ما يُطلق عليها أدوات التَّخريب. حيث يتمّ مزج هذه الأدوات بطريقة متزامنة لاستغلال نقاط ضعف الخصم وتحقيق تأثيرات متزامنة. يتمثّل الهدف الرئيس من هذا الخلط بإلحاق الضّرر بالدّولة المستهدَفة بالطريقة المثلى. ويتمّ التركيز على مصادر وأنماط متعدّدة من الهجوم، بهدف تآزر النتائج، وتحقيق مستوى عال من الشكّ للخصم لما قد تكون عليه الأهداف الاستراتيجية النهائية. ما يؤدّي إلى جعل العناصر الحاسمة للنظام في الدّولة مهمّة وميادين للحرب الهجينة. والمقصود بالعناصر: العنصر السياسي، والدبلوماسي، والاجتماعي، والتقني، والفني والمالي، والسيبراني، والمعلومات.

- المنطقة الرمادية

لقد تلاشت الحدود بين ما يعدّ أرضًا للمعركة، وما لا يعدّ كذلك. وأصبحت كل من البورصة والمختبر ووسائل الإعلام والمراكز الاقتصادية والدينية والفضاء الإلكتروني، بمنزلة ساحات معارك لا تقلّ أهمية عن ميادين القتال. فتحوّل بذلك المتعاملون بأسواق المال، والعلماء والصحفيون وأصحاب البنوك ومديرو الشركات ورجال الدين وأصحاب التّخصصات الفنية

(٨) أنظر صن تزو، " **فن الحرب**"، ترجمة أوف شبايك، دار الأجيال للنشر والتوزيع، ٢٠٠٧، ص ٥٠.

المختلفة والأفراد بصفة عامة، إلى مقاتلين يمكن توظيفهم ضد الدّول. وذلك في حال استقطابهم من جانب التنظيمات الإرهابية، والفاعلين المسلحين من الدّول الأخرى. ويلاحظ أنّ القوى الدّولية الصاعدة كالصين وروسيا توسّعت في الاعتماد على المناطق الرمادية، خصوصًا في ظلّ إرتفاع تكلفة شنّ الحروب التقليدية، وتنامي الاعتماد المتبادل الاقتصادي والاجتماعي بين الدّول.

وعلى الرغم من أن الحرب الهجينة ليست مفهومًا جديدًا، إلا أن التطور التكنولوجي الذي حدث سمح بتنفيذ الاستراتيجيات الهجينة في مجال جديد للحرب، ولا سيما فيما يتعلّق بالبعد السيبراني. فمنذ ظهور الإنترنت في التّسعينيات، تشكّلت مصطلحاتٌ جديدة أبرزها عبارة "سايبر" (Cyber)، للدلالة على التسميات المتعلّقة بالإنترنت. وهو مصطلحٌ يعني دراسة آليات التحكّم والاتصال عند الكائنات الحيّة، في الآلات والأنظمة السوسيولوجية والاقتصادية.

- أدوات الحرب الهجينة

تحوّلت المعلومات الصحيحة والمزّيفة إلى أداة تشكّل اعتقادات الناس ويجري توظيفها للتلاعب بهم. ومع تراجع رغبة الدّول الكبرى على شنّ الحروب التقليدية، حوّلت جهودها نحو معارك الوعي. فمثلاً في عام ٢٠١٧ انتقلنا من حروب الاستنزاف إلى حروب الإدراك[٩]. وقد وُصف العقل البشريّ بأنّه ساحة قتال القرن الحادي والعشرين. وقد أظهر التّحليل الإعلاميّ العواقب المهمّة للاستخدام الجماعي لحملات المعلومات السّياسيّة الاجتماعيّة السّلبية الواسعة النطاق. إذ يبدأ العدوان السيبراني باستهداف الشخصيات الرّئيسة في الحكومة، عبر تدفّق المعلومات السّلبيّة، من أجل زيادة إضعاف الثقة بالحكومة، والتشجيع على السّلوك المناهض لها. عندها يتمّ توسيع ذلك النطاق ليشمل وسائل التواصل الاجتماعيّ، لأنّ نشر المعلومات الخاطئة والمضلّلة يصبح أسهل وأسرع. فإذا لم تخلق المعلومات تغييرًا واعيًا في المعتقدات، فهي ستؤثّر حتمًا على تفسير المعلومات المستقبلية من خلال توفير وسائل إرساء وتجهيز فعّالة، ما يساعد ذلك المعتدي المحلّيّ في التأثير على مسار النّزاع، من أجل إضعاف الدعم للحكومة المستهدفة. وفي بعض الحالات، يمكن لحرب المعلومات هذه أن تحلّ محلّ العمليات على الأرض، ما يقوّض الحملات الدفاعية حتى قبل أن تبدأ.

- حرب المعلومات

لا شكّ أن التقنيات مثل وسائل التواصل الاجتماعي قد تمكّنت من التأثير عن بعد، على جميع المؤسسات الرئيسة والبنية التحتية للدولة، وشكّلت أساسًا ومُنطلقاً للغزوات غير التقليدية للأراضي. وفي معظم الأحيان من دون استخدام المكوّنات العسكرية التقليدية التي يمكن أن تحقّق أيضًا أهدافًا استراتيجية من دون استخدام العنف. من هنا تراجع دور الحملات الإعلامية لصالح التّقنيات الجديدة، والتي تُستغلّ لتحقيق الغايات والأهداف للدولة المُعتدية، من خلال التأثيرات غير التقليدية

(٩) بحسب الجنرال دايفد غولدفين (David Goldfein) من القوات الجوية الأميركيّة راجع:
Thomas X. Hammes, "The Sling and The Stone: On War In the 21st Century", Op.Cit, p.2.
"باتروشيف: واشنطن قامت بتجربة تقنيات الحرب الهجينة في الشرق الأوسط"، RT online، ١١ تشرين الثاني ٢٠١٩.
https://arabic.rt.com/middle_east/1059287 (تمّت زيارة الموقع في ٢٥ تموز ٢٠٢٣).

كتقنيات التأثير الاجتماعي والتّلاعب بالوعي، واستخدام الفضاء السيبراني ووسائل التواصل الاجتماعي، والمعلومات كأسلحة فتّاكة.

أما لجهة تعميم المعلومات وتسليحها فالطريقة والأسلوب يختلفان بين دولة وأخرى، تبعاً للنظام السياسي السائد في البلد المستهدف. بمعنى آخر، تتمّ هندسة الرأي العام في بلد ما بطرق مُختلفة، تختلف بحسب النظام القائم في الدولة الهدف. والمقصود بالرأي العام كمصطلح هو التعبير عن مجموع الآراء التي يدين بها معظم الناس في بلد معيّن إزاء المسائل التي تؤثّر في مصالحهم العامة والخاصة، مع إمكانية وجود آراء أخرى تختلف عنه، ولكنها لا تقلّل من أهمّيته أو إمكانية وصفه بأنَّه عام. وقد أُشير إلى أنَّ الرأي العام ليس مجموعًا حسابيًّا للآراء الفردية، وإنما هو محصّلة تفاعل اكتملت حلقاته.

- حرب الإدراك

تعدّ الحرب الإدراكيّة أوسع من حرب المعلومات. فمجال المعركة الإدراكية يُخاض من خلال حرب المعلومات التي يتمّ تحويلها إلى معرفة من خلال العمليّات الإدراكية. إنَّ تحقّق الاتصالية الفائقة بسبب انتشار الإنترنت ووسائل التواصل خلال العقد الأخير، أتاح قدرة الجذب المتواصل لاهتمام العقل البشريّ. هذه الظاهرة أقامت جسرًا بين حرب المعلومات والحرب الإدراكيّة، عبر تحويل الأولى من مجموعة أنشطة عرضية episodic مواكبة للجهد العسكري، إلى جهد موحّد لدعم العمليات الحربية. تجمع الحرب الإدراكية أدوات حرب المعلومات وتأخذنا إلى مجال "الأسلحة العصبية" التي تشمل كل شيء ينفذ إلى الدماغ لمغالبة الآخرين.

القسم الثاني
الشرق الأوسط ميدان للحروب الهجينة منذ زمن

لقد أصبحتْ السّياسة العالميّة مثل لعبة الشّطرنج، ثلاثيّة الأبعاد، الفوز يكون بطريقة عموديّة وأفقيّة معًا: الرّقعة الأولى هي للقضايا العسكريّة التّقليديّة بين الدّول، الرّقعة الوسطى متخصّصة بالقضايا الاقتصاديّة، والرّقعة السّفلى هي القضايا الانتقالية مثل الإرهاب، وتغيير المناخ، والجرائم الدّوليّة وغيرها من القضايا الدّوليّة. وبتنا نشهد حروبًا لا تصلح مقارنتها بكثير ممّا مرّت به منطقة الشرق الأوسط من قبل لأسباب عديدة. أهمها أنّ أنواع الأسلحة المستخدمة، وحجم الدّمار الّذي تخلّفه، أصبحا أكبر مما هو مألوف. كما أنّ حجم الكتلة البشريّة المتأثرّة بالحروب تتخطّى بمراحل ما عرفه التّاريخ الحديث للمنطقة. وعلى الرّغم من هذا التّطور لمضمون الحرب والقوة، تبقى القوة العسكرية المعيار المحوري للحروب وإن لم تعد المعيار الكافي والحاسم.

تبرز أهمّية الشرق الأوسط انطلاقاً من موقعه الاستراتيجي الذي يربط القارات الثلاث أوروبا وآسيا وإفريقيا. وبالرجوع إلى نظرية الجيوبولتيك، فإن الشرق الأوسط يقع في أقرب مكان إلى قلب الأرض. فضلاً عن كونه منطقة تحتوي على العديد من الأنهار الكبرى مثل أنهر النيل و دجلة والفرات ونهر الأردن، حيث تتوفّر المياه اللازمة للشرب والزراعة والصناعة.يتوسّط أيضاً جميع الخطوط البحرية والجوية الرئيسية. كما أنه يحتوي على الموانئ والمطارات، فضلاً عن وجود ممرّ ملاحي مهمّ فيه وهو قناة السويس. تتمتّع أيضاً منطقة الشرق الأوسط بثروات طبيعية، وتعدّد مصادر الطاقة ما الذي تؤدي فيه منطقة الشرق الأوسط دوراً بارزاً في الاستراتيجيات الدولية عبر السنين. وهي اليوم منطقة تطالُها الحرب الهجينة بناءً على تقارير

وتصريحات ممثّلي الدّول الكبرى[١٠].

ونتيجة للتنافس الدّولي، تعاني منطقة الشرق الأوسط من اضطرابات وتوتّرات، وتندلع فيها الحروب والنزاعات المسلّحة. وتعدّ الولايات المتحدة الأميركية وروسيا، من أبرز الفاعلين في منطقة الشرق الأوسط. فهما تتنافسان منذ زمن من ناحية تطوير جيشيهما وتحديثهما. وتتسابقان أيضاً على امتلاك الأسلحة النوعية الفتّاكة. لذلك، يمكن القول إنّنا في حالة سباق تسلّح جديد رمادي. وهو رمادي للدلالة على أنّ الأطراف المتنافسة ليست متكافئة بالقوة، كما كان عليه الوضع في الحرب الباردة. إنّما تحاول روسيا أن تعيد نفسها كقوة عظمى على الساحة الدّولية، ومنافسة للهيمنة الأميركية، من خلال الحروب الهجينة. لأن الوسائل الهجينة تعتبر الوسيلة الأمثل لحالة عدم التكافؤ في القوة. وكونها تقع دون مستوى الحرب ولا تستدعي الدخول مباشرة فيها، وليست علنية وليست واضحة المعالم.

- نماذج استراتيجيات بناء السياسة الخارجية

النّمط الأوّل: نموذج "المنارة"

في هذا النمط التقليدي، تكون هناك استراتيجية واضحة محدّدة متعدّدة المراحل، مع أهداف طويلة ومتوسطة وقصيرة الأجل. على أن تؤدي الاستراتيجية والخطة المرسومة سلفًا دور "المنارة" التي تقود العمليات الخارجية كلّها في منطقة محددة. تستخدم روسيا والصين هذا النمّط بشكل أساسيّ، إذ يتمّ اعتماد خطط طويلة المدى وخطط خمسيّة وخطط سنويَّة. وتعمل الأجهزة كلّها، العسكرية والدبلوماسية والسياسية والاقتصادية والتنموية، في تناسق متكامل لتحقيق الأهداف المرسومة، مسترشدةً بالاستراتيجية التي ترسمها الدّولة المركزية، والتي تؤدي دور "المنارة".

النمط الثاني: نموذج "المرايا"

بموجب هذا النّمط، تصاغ استراتيجية السياسة الخارجية، بناءً على تعدّد المصالح والمجموعات ومجموعات الضغط والقطاع الخاصّ والمؤسّسات الحكومية، التي يكون لكلٍّ واحدة أهدافها ومصالحها، والتي تتنافس في ما بينها للتأثير في السّياسة الخارجية وقراراتها، وتكون الاستراتيجية الموضوعة انعكاساً ومرآةً لمجموعات متعدّدة من المصالح وتنافس بعضها مع البعض الآخر. يُعتمد هذا النموذج بشكل أساسيّ في الولايات المتحدة الأميركية. إذ تتنافس "اللوبيات" ومجموعات المصالح للتأثير في السياسة الخارجية. ولعلَّ تضارب مصالحها هو الذي يولّد انطباعاً عامًّا بعدم تناسق الاستراتيجيات الأميركية، وهو أمر غير صحيح. ولا شكّ في أنَّ هناك مبادئ وثوابت في الاستراتيجيات الأميركية في صنع السياسات

(١٠) "Achieving this goal requires three lines of effort:
1) invest in the underlying sources andtools of American power and influence
2) build the strongest possible coalition of nations to enhance our collective influence to shape the global strategic environment and to solve shared challenges
3) modernize and strengthen our military so it is equipped for the era of strategic competition with major powers, while maintaining the capability to disrupt the terrorist threat to the homeland", p 10.
https://www.whitehouse.gov/wp-content/uploads/2022/10/Biden-Harris-Administrations-National-Security-Strategy-10.2022.pdf (Accessible at 15 November 2022)

الخارجية، مع الاحتفاظ بهامش كبير لأصحاب المصالح للتأثير وفرض وجهات نظرهم حول الوسائل والسبل الأمثل لتحقيق تلك الأهداف.

- الاستراتيجية الهجينة الروسية

رسمت روسيا الاتحادية استراتيجياتها للأمن القومي بوتيرة متصاعدة منذ سقوط الاتحاد السوفياتي، بهدف استعادة قوّتها ومكانتها كدولة داخليًّا وخارجيًّا. ومنذ ذلك الحين، صدرت مجموعة من استراتيجيات الأمن القومي، بدءاً من عام ١٩٩٣، وصولاً إلى عام ٢٠١٢ حيث استمرّ تنفيذ هذه الاستراتيجية ثماني سنوات. وقد أُجري عليها تعديلان في نهاية عام ٢٠١٤ ونهاية عام ٢٠١٥، قبل أن يوقّع الرئيس الروسي الاستراتيجية الجديدة في الثالث من تموز ٢٠٢١. لقد عكست كل واحدة من هذه الاستراتيجيات وضع البلاد في لحظة إصدارها، وتطلّعاتها المستقبلية وفق القدرات التي تمتلكها، أو تلك التي تسعى إلى امتلاكها. ويُمكن القول إن مضامين هذه الاستراتيجيات مع التعديلات التي أُقرّت تشير إلى قناعة لدى صانعي القرار الروسي، أنّ روسيا حقّقت نجاحات كبيرة وراكمتها لدرجة خوّلتها أن تكون لاعباً أساسياً على الساحة الدولية. فكلّما قَوِيت قدرات الدّولة كبُرت أهدافها، ثمّ زادت وتنوّعت المخاطر التي تهدّدها.

وقد تضمّنت هذه الاستراتيجيات عزم روسيا الواضح على استعادة حضورها الدّولي. إنّ ازدياد الثقة لدى موسكو بإمكانية استعادتها لمكانتها العالمية ارتفع مع وصول الرئيس بوتين إلى سدّة الرئاسة. فبعد وصوله إلى الكرملين، بدأ بوتين السعي وراء هذا الهدف عبر تأميم جزء من القطاعات المهمة وأعادها إلى ملكية الدّولة. وأبرز هذه الخطوات كانت استعادة قطاع الغاز المصدر الأساس لثروة روسيا. ثم إعادة تطوير الصّناعات العسكرية التي انهارت في التسعينيّات. وصولاً إلى عام ٢٠٠٧ الذي رفع من خلاله سقف التحديات، وتحديدًا في خطابه التاريخي في مؤتمر ميونيخ للأمن الدّولي، عبر إعلانه أن بلاده لن تقبل الأحادية القطبية بعد ذلك الوقت، وأنَّها تسعى إلى عالم متعدد الأقطاب. لتتبلور منذ ذلك التاريخ رغبةً روسيا في بناء النظام الدولي المتعدد الأقطاب، وعودة "روسيا العالمية"، وهو الأمر الذي ورد صراحةً هدفًا رئيسًا من أهداف استراتيجية الأمن القومي الروسي، ٢٠١٢- ٢٠٢٠.

- المصالح الاستراتيجية الروسية

تعود أسباب الاهتمام الروسي بالشرق الأوسط إلى عوامل جغرافيّة وسياسيّة واقتصاديّة متعدّدة تعيق الاتحاد الروسي من حيث الموقع، والمنافذ البحرية، والموارد وتصديرها، على سبيل المثال لا الحصر:

١- الموقع الجيوبوليتيكي: يلقي الموقع الجغرافي الروسي ثقلاً كبيراً على روسيا وقدراتها. على الرغّم من تمتُّع الاتحاد الروسي بمساحة كبيرة، إلا أنَّ منافذه البحرية على بحار العالم ومحيطاته تعاني تحدّيات بنيوية لا تتيح لروسيا الوصول إلى البحار. فضلاً عن أن البحار التي كان يطلّ عليها الاتحاد السوفياتي سابقاً هي إما متجمّدة، وإمّا غير صالحة للملاحة وإما بحار مغلقة. لذلك نلاحظ أن الاقتراب المستمرّ باتجاه المياه الدافئة كان أحد المحرّكات الأساسية في الاستراتيجية السوفياتية. ومع أنّ هذا الوضع كان نفسه أيام الاتحاد السوفياتي، إلا أنّه تفاقم مع فقدان الاتحاد الروسي ملكيته لأهمّ قواعده البحرية، وأكثرها قدرات وإمكانات وهي قاعدة "سيباستوبول" البحرية في شبه جزيرة القرم. ومع حرمانها من النوافذ الساحلية التي فقدتها باستقلال أوكرانيا وجورجيا وأذربيجان وأرمينيا،

فإنّ روسيا باتت غير مستعدّة لأي تضحية ولو بميلٍ بحري. من هنا نستطيع إدراك الأهمية التي توليها روسيا لأسطولها البحري في ميناء طرطوس السوري.

٢- المساحة الجغرافية: عانى الاتحاد السوفياتي السابق من خصائص سلبية كثيرة، إذ كان يعدّ من أكبر الدّول من حيث المساحة (٢٢،٤٠٢،٢٠٠ كم٢). وهو أمر أدّى إلى ارتباطه بحدود طويلة مع دولٍ كثيرة. بالإضافة إلى الهاجس الأمني التاريخي النّاجم حول تكرار عمليات الاختراق العسكري الخارجي للحدود السوفياتية.

٣- النفط: إن تدفّق النفط في منطقة بحر قزوين يجعل روسيا مستعدّة في سبيل إبقاء الأراضي في الجنوب كلها، تحت سيطرتها خصوصًا في ظلّ التقدّم الاميركي - الأوروبي في القوقاز وآسيا الوسطى من خلال شركات الاستثمارات النفطية.

٤- القواعد العسكرية المحاذية للحدود الروسية: إن أحداث ١١ أيلول ٢٠٠١، والحرب الأميركية على أفغانستان، مكّنتا الولايات المتحدة من إيصال القواعد العسكرية الأميركية إلى أطراف الحدود الروسية، وهو الأمر الذي شكّل تهديدًا للمصالح الروسية في مداها الحيوي.

لذلك، حاولت روسيا الحدّ من المعوّقات التي تحول دون عودتها إلى قوة عظمى مجدداً، من خلال تطوير قدراتها العسكرية، وتحديث جيوشها، وتطوير أساليب قتال فريدة من نوعها من حيث النوّعية والنتائج.

- الاستراتيجية الهجينة الأميركية

تشكّل وثيقة الأمن القومي الأميركي، بصورة عامة، الخطوط العريضة للرؤية الاستراتيجية الأميركية في مرحلة وزمان معيّنين، وهي تتبدّل وفق تبدُّل الظّروف والأخطار والتّحديات العالمية. لذلك، نجد أنَّ الوثيقة الاستراتيجية للأمن القومي التي نُشرت عام ٢٠٢٢، تتضمّن الاستجابة إلى حدّ ما للحروب الهجينة و"خفض التصعيد". والملفت فيها، إشارتها إلى الحروب الهجينة البحرية في المبدأ الثاني من المبادئ الخمسة، بل والمناورة فيها، وحتى تفادي الحروب المباشرة والعلنية. وقد تضمن البند الثاني:

أ - التركيز على خفض التصعيد

ب - ادّعاء امتلاك "ميزة نسبية" لا تضاهى لتحقيق الاستقرار

ج - الالتزام "الصارم" فيما يتعلق بأمن "إسرائيل"

بشكلٍ عام، تقدّم استراتيجية الأمن القومي الأميركي أبرز التحديات والخطوات المستقبلية التي تضعها الإدارة الأميركية لتنفيذها بما يتناسب مع التطورات والتحديات الدّولية. لذلك، نرى في الاستراتيجية الموضوعة لعام ٢٠٢٢ أنها تطرّقت لمواضيع مختلفة تهمّنا في بحثنا الحالي سنتطرّق إليها باختصار.

الهدف الوحيد بحسب الاستراتيجية بالنسبة إلى الولايات المتحدة هو تشكيل نظام دولي آمن وحرّ يمنح الدّول الموافِقة على الهدف جميعها، فرصة للمشاركة في هذه القواعد والعمل على تشكيلها، وذلك من خلال محاور ثلاثة هي:

١- الاستثمار في المصادر الأساسية وأدوات النفوذ والقوة الأميركية [١١].

٢- بناء أقوى تحالف ممكن من الدّول لتعزيز التأثير الجماعي وتشكيل البيئة الاستراتيجية العالمية وحلّ التحديات

(١١) أجرى باحثون من "مركز الدراسات الاستراتيجية والدّولية CSIS"، متخصّصون في المسألة الصينية (مايك غرين، =

المشتركة[١٢].

٣- تحديث الجيش الأميركي وتقويته حتى يكون جاهزًا للعصر الاستراتيجي وللمنافسة مع القوى الكبرى.

- المصالح الاستراتيجية الأميركية

تركّز استراتيجية الأمن القومي الأميركية لعام ٢٠٢٢ على موضوع واحد وهو أنَّ الولايات المتحدة تدخل فترة "تكثيف المنافسة الاستراتيجية مع العديد من المنافسين[١٣]، أبرزهم روسيا والصين. حيث يعتبر البيت الأبيض أن "الصين وروسيا تمثّلان تحدّي القوة والنفوذ والمصالح الأميركية، وذلك في محاولة لتقويض الأمن والازدهار الأميركيين[١٤]". تجادل وزارة الدفاع الأميركية أنه بات واضحاً بشكل متزايد أن الصين وروسيا تريدان تشكيل عالم يتوافق مع النموذج الاستبدادي - اكتساب سلطة الفيتو على الدّول الأخرى القرارات الاقتصادية والدبلوماسية والأمنية[١٥] فالعقلية الأميركية التقليدية المبنية على "نحن إما في حالة سلام أو في حالة حرب" غير كافية للتعامل مع تلك الديناميكية[١٦]، لأن الوضع الناشئ هو في الأساس" عدائي المنافسة، ذو بعد عسكري دون النزاع المسلح"[١٧]

لذلك، تقوم الاستراتيجية الأمنية الأميركية في منطقة الشرق الأوسط على ركائز ثلاث:

أ - ردع التّهديدات في المناطق الغنية بالطاقة، عبر بناء بنية تحتية "متكاملة" للدفاع الجوي والبحري في الشرق الأوسط، وعبر بناء بنية دفاعية جوية وبحرية متكاملة مع الحلفاء من خلال الشراكات الأمنية والدفاعية المبتكرة والتقنيات الجديدة، وصولاً إلى تبادل الخبرات والمعلومات والتدريبات العسكرية المشتركة.

ب - دعم الجيوش في الدّول التي لا ترتبط بمعاهدات أمنية دفاعية مع الولايات المتحدة، ومنها لبنان والعراق، وذلك عبر تقديم الدعم اللازم لتلك الجيوش لتأمين الاستقرار ومحاربة الإرهاب.

ج - العمل على تقليل التوترات وتخفيف

= بوني غلاسر، سكوت كينيدي، جود بلانشيت) مسحًا شارك فيه ٤٠٠ من قادة الفكر من ١٢ مؤسّسة وطنية في أميركا (قطاعات الزراعة والصناعة والأمن القومي وحقوق الإنسان)، إضافة إلى مفكّرين عالميين من ١٦ دولة في آسيا وأوروبا، وعيّنة من ألف مواطن أميركي (أعلن عنه ضمن بودكاست "رقعة شطرنج آسيا" في تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠٢٠). أظهر المسح أنّ ٥٤٪ من الرأي العام الأميركي يرى في الصين التحدّي الأكبر بوجه أميركا مع أغلبية وازنة لديها تصورٌ سلبيٌ تجاهها. وعن كيفية الاستجابة لذلك، رأى ٤٥٪ من الرأي العام و٨١٪ من قادة الفكر الأميركيين، أنّه يجب ملاقاة الصين من خلال الحلفاء والشركاء، وليس بمواجهة مباشرة. ويعتقد بلانشيت أنّ الصينيين يراقبون ميزان القوى وتعامل أميركا مع الجائحة، فيتأكّد لديهم أنّ أميركا قوة آفلة مع مؤسّسات ديموقراطية متدهورة في مقابل صعود الصين، ولذا يعتقد الرئيس الصيني بأنّ الوقت يسير إلى جانب بلاده.

(١٢) أنظر حسام مطر، "نحن بين استدارتَين"، **جريدة الأخبار**، ٢٣ كانون الأول ٢٠٢٠، ص. ١-٢.
https://www.whitehouse.gov/wp-content/uploads/2022/10/Biden-Harris-Administrations-National-Security-Strategy-10.2022.pdf.

(١٣) National Security Strategy, Op.Cit, p.1-2.

(١٤) U.S. Department of Defense, Summary of the 2018 National Defense Strategy of the United States of America: ‘‘Sharpening the American Military’s Competitive Edge’’, Washington, D.C.,2018, pp. 1-2.

(١٥) Ibid, pp. 1-2.

(١٦) See Colin Clark, "CJCS Dunford Calls for Strategic Shifts; ‘At Peace or at War Is Insufficient", In Breaking Defense, September 21, 2016.

(١٧)

التصعيد وإنهاء النزاعات حيثما كان ذلك ممكنًا من خلال الدبلوماسية.

– المعضلة الأمنية بين الواقعية والمثالية

تتنافس الولايات المتحدة الأميركية وروسيا منذ زمن من ناحية تطوير جيشيهما وتحديثهما. وتتسابقان أيضاً على امتلاك الأسلحة النوعية الفتّاكة. لذلك، يمكن القول إنّنا في حالة سباق تسلّح جديد رمادي. والمقصود بالرَّمادي أنّ الأطراف المتنافسة ليست متكافئة القوة، كما كان عليه الوضع في الحرب الباردة، إنّما تحاول روسيا أن تعيد نفسها كقوة عظمى على الساحة الدّولية. ومنافسة للهيمنة الأميركية، من خلال الحروب الهجينة، لأنها الوسيلة الأمثل لحالة عدم التكافؤ في القوة، وكونها حرب لا تستدعي الدخول مباشرة فيها، وليست علنية، وليست واضحة المعالم.

تهدف الحروب الهجينة إلى تفتيت الدّول وتغيير حكوماتها كوسيلة للوصول في النهاية إلى تحقيق الهدف وهو توجّه الدّولة[١٨]. فالجيش الروسي مثلاً، يسعى إلى تحديد الحكم في الدّولة المستهدفة، في حين أنّ الهدف الأوسع من الحرب الهجينة هو السيطرة على الأساسيات، أهمّها توجّه الدّولة. وهو هدف معلوماتي يتطلّب الاعتماد على الحملات الإعلامية [١٩].

إن الحروب الهجينة "مفضّلة" من قبل طلّاب الصراع لعدّة أسباب، أهمّها القدرة على إنكار المسؤولية، اقتصارها على ضربات موجعة متنوّعة. وتبقى العمليات العسكرية دون عتبة الحرب. لذلك، وبناءً على ما سبق، فإن المُنتصِر لن يكون أيّاً من طرفي النزاع، لأن الخسارة تلحق بالجميع من دون استثناء. ولو تضرّر طرف أكثر من طرف، إلّا أن الأضرار قد تطال دولًا غير مباشرة وغير معنية بالنزاع.

– تطوير دفاع هجين

وبما أنَّ الشرق الأوسط ساحة صراعات متنوّعة فإن الإجراءات المضادة الفعالة تعدّ أولوية قصوى لدفاع الدّولة في ظلّ الظروف المعاصرة. من هذه الإجراءات:

أ – اعتماد أنواع متقدمة من الناحية التكنولوجية والذكاء الإلكتروني والمعلومات والعمليات النفسية والعمليات السيبرانية، التي يمكن تنسيقها لتحقيق استراتيجية مشتركة. وكذلك القدرة على العمل بشكل مستقلٍّ وكجزء مِن العمليات الأخرى.

ب – استخدام الطائرات وتطويرها من دون طيار كأحد المكوّنات الرئيسة مع قابلية التشغيل المستقلّة في كل من العمليات القتالية. حيث يُعتبر الاستخدام المتزايد للطائرات من دون طيار لمختلف المجالات الوظيفية (الإجراءات الإلكترونية المضادة، والضربات المباشرة) وبيئات التّشغيل المختلفة (البر والبحر والجو والبرمائية) أحد الاعتبارات المهمّة للمرونة في حالات الصراع الديناميكي. كما تطوير ونشر قدرات الاستخبارات والاستجابة المتقدّمة بالتّوازي مع التدريب المناسب للأفراد العسكريين والمدنيين الذين سيحتاجون إلى العمل داخل النّظام.

لا يمكن توقُّع أن تعمل التكنولوجيا بشكل صحيح من دون موظفين ذوي مهارات عالية، يمكنُهم استخدام الأنظمة المعقّدة اللازمة لمعالجة الطبيعة المتغيّرة لساحة المعركة

(١٨) Mason Clark, ‘‘Russian Hybrid Warfare’’, Institute for the Study of War, September 2020, p.16.

(١٩) Mason Clark, "Russian Hybrid Warfare", Op. Cit, p.16.

وصيانتها وتطويرها. لا يمكن أيضًا توقّع القدرات الكاملة والفعّالة إلا عندما يتمّ تطوير الاستراتيجيات والتّقنيات بالتّنسيق مع التدريب المهني. غالبًا ما يكون الاستخدام غير المهني لهذه التّقنيات هو السبب وراء ضعف أدائها. كما هو الحال عندما تعالج إجراءات التشغيل القياسية في التدريب المفاهيم القديمة للمشكلة (على سبيل المثال، التّدخل السيبراني في شبكات المعلومات كمسألة فنية، بدلاً من اعتبارها مسألة خطرة على الأمن القومي).

– خاتمة

بناء عليه، إنَّ فوضى الحروب الهجينة حول العالم والأحداث الجارية في مناطق مختلفة حشدتْ اصطفافات دولية ودعم عسكري. بدءاً من ضمّ شبه جزيرة القرم وصولًا إلى الحرب الروسية - الأوكرانية عام ٢٠٢٢. واليوم انضّمت غزة إلى ميدان الحروب الهجينة عبر المعركة العسكرية التي أطلق عليها "طوفان الأقصى" في السابع من أكتوبر/ تشرين الأول من العام ٢٠٢٣، والتي طبّقت خلالها مختلف وسائل الحروب الهجينة بشكلها النموذجي. وهذه كلّها معطيات تشير إلى أنَّنا في مخاض نظام دولي جديد كانت الشرارة فيه الحرب الروسية - الأوكرانية. واللافت اليوم أيضاً، هو دخول الصين إلى الشرق الأوسط من بوابة الخليج والحوار وانفتاح العلاقات بين الدول الإقليمية. وهو ما يطرح تساؤلات عديدة حول إعادة خلط الأوراق ومناطق النفوذ في منطقة الشرق الأوسط، يليه أوكرانيا وفي العديد من مناطق العالم.

في المحصّلة، يتبيّن لنا أن العالم اليوم على مشارف تحوّلات كبرى، وعند نقطة انعطاف حرجة، حيث سيكون هذا العقد حاسمًا في تحديد شروط المنافسة بين الولايات المتحدة وجمهورية الصين الشعبية وروسيا الاتحادية. وذلك في كيفية إدارة التّهديد الحادّ الذي تشكّله روسيا للولايات المتحدة، وفي جهود أميركا للتعامل مع التّحديات، ولا سيما تغيّر المناخ والأوبئة والاضطرابات الاقتصادية.

واليوم نجد أنه سعيًا إلى إحداث تغيير في موازين القوى على الساحة الدّولية، وبهدف الوصول إلى نظام دولي جديد أو أقلّه إحداث تغيير في النظام الدولي القائم، تتّجه روسيا والصين وغيرهما من الدول الإقليمية، كما الجهات الفاعلة غير الحكومية بشكل متزايدٍ إلى اعتماد وسائل الحرب الهجينة. بينما تستخدمها الولايات المتحدة وحلفاؤها لبثّ الدعاية المعاكسة والحفاظ على النظام العالمي الحالي.

لطالما شكّلت منطقة الشرق الأوسط عموماً، والمنطقة العربية خصوصاً، نقطة استقطاب استراتيجية منذ سنوات طويلة للعديد من الدّول المتنافسة والداخلة في سباق محموم من الصراع على مصادر الطاقة. وكذلك جعل العديد من دول المنطقة ذات تأثير يتعاظم بأبعاده الجيوسياسية على خريطة التّحالفات في منطقة الشرق الأوسط. وعلى الرغم أيضاً من الحديث عن الانكفاء الأميركي عن الشرق الأوسط من قبل بعض الباحثين، وعن إعادة التموضع في المنطقة، نجد أنّ البُعد الاقتصادي والبحث عن مواقع جديدة في حركة الاقتصاد العالمي وفي النظام العالمي ككلّ، لا يزال هو المتحكّم بمسار مجريات الأحداث والوقائع.